المواجهة السلمية.. بل المسلحة

إن قدر هذه الأمة أن تكون في مواجهة مستمرة مع أعدائها، وفي ظل الظروف الراهنة انقسم كثير من أفراد الأمة الإسلامية في تفعيل نوع المواجهة إلى قسمين:
القسم الأول:
قالوا بالمواجهة المباشرة: وهي ما يفعله المجاهدون وبعض العلماء في بعض بلاد الإسلام كأفغانستان، والفلبين، وكشمير، وفلسطين وغيرها من البلاد الإسلامية التي أُعلن فيها الجهاد المسلح ضد العدو.
القسم الثاني:
قالوا بالمواجهة غير المباشرة: وهي التي يدعوا إليها كثير من العلماء والدعاة في شتى بلاد المسلمين ويوافقهم عليها جل حكام البلاد الإسلامية وما يسمون بالمفكرين والخبراء.. وأطلق عليه البعض "فقه المرحلة"..
وهاتين المواجهتين (إذا انفردت أحداهما بالساحة) لهما جوانب سلبية وجوانب إيجابية نلخص أهمها في النقاط التالية:

القسم الأول: المواجهة المباشرة
الإيجابيات:
1- رفع معنويات الأمة الإسلامية، وزرع الثقة في نفوس أبنائها، وبث روح التضحية في شباب الأمة.
2- إرهاب العدو وردعه عن التسلط كيف شاء على رقاب المسلمين.
3- إيجاد كفاءات إسلامية حربية عالية في مواجهة التقدم العسكري والتقني للأعداء.
4- إيجاد ورقة ضغط على الأعداء في المفاوضات والإتفاقيات.

السلبيات:
1- الزج بشباب الصحوة الإسلامية في حرب غير متكافئة بكل المقاييس الأرضية.
2- التأثير على العمل الدعوي في كثير من الدول الغربية وغيرها.
3- فتح المجال للأعداء للتسط على المؤسسات الإسلامية باسم محاربة الأصولية.
4- إيجاد أو فتح المجال لبعض الحكومات في بلادنا لقمع المؤسسات الإسلامية.

القسم الثاني: المواجهة الغير مباشرة
الإيجابيات:
1- تفعيل العمل الدعوي وضمان عدم التصعيد "النسبي" لمحاربة المؤسسات الدعوية.
2- إعطاء الفرصة لنشر الثقافة التأصيلية في صفوف الصحوة الإسلامية.
3- التقارب (النسبي) بين الصحوة والمؤسسات الحاكمة في بلاد المسلمين.
4- فرصة التقارب والعمل المتجانس بين الأحزاب والجماعات الإسلامية.
5- كسب الوقت لتفعيل النشاطات الدعوية في ظل تفاعل عامة المسلمين مع القضايا الراهنة.
السلبيات:
1- انعدام الثقة بالنفس في مواجهة غطرسة العدو، وخلق حالة من الإحباط في نفوس عامة المسلمين.
2- بعد الهوة بين أصحاب هذه النظرية وبين الشباب المتحمس للمواجهة المباشرة.
3- تجرؤ العدو على التنكيل بالشعوب الإسلامية دون خوف أو رادع، واستخفاف الشعوب الأُخرى بالمسلمين.
4- التمكين لنظرية فشل الصحوة الإسلامية (ومن ثمة الإسلام) في مواجهة التحديات الجديدة.

التوفيق والموازنة لا التفريق والتصادم:
لو تأملنا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لوجدنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يستخدم أُسلوبي المواجهة معاً بطريقة في غاية الحكمة.. فبينما يُغير على قوافل قريش ويدخل معها في معارك مباشرة (كما في بدر وأحد وغيرها من الغزوات)،، يعقد اتفاقيات صلح مع قبائل أخرى في الجزيرة للمصلحة الراجحة (كما فعل مع قبائل اليهود في المدينة وغيرها من القبائل).
لقد كان النبي –بأبي هو وأمي– صلى الله عليه وسلم، يضرب لأمته المثل في فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد.. وكان يستخدم جميع الأساليب الشرعية المتاحة لتحقيق المصلحة العظمى المتمثلة في نشر هذا الدين وإبلاغه للناس كافة.
لقد علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم من خلال سيرته بأن الدعوة لا تستقيم بغير السيف، وأن السيف لا يستقيم بغير منهج يجمح تهوره ويوجه حده. لقد ضمن النبي صلى الله عليه وسلم رهبة جانبه بقوة أصحابه، وعمل على ضمان حرية الدعوة إلى الله بهدنته مع أعدائه..

والناظر في سيرته صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من بعده يرى بأن الجهاد لم ينقطع في حياته أو حياتهم، وأن الدعوة بالحسنى كانت مرادفة للجهاد في جميع الظروف.. فبينما كان يرسل القراء للدعوة بين القبائل، كان يرسل القادة الميدانيين لردع القبائل المشاكسة ولتثبيت هيبة المسلمين في نفوس المتربصين..
لم يكن الإنتصار العسكري في يوم من الأيام غاية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما كان وسيلة لهدف أسمى، فلما انتصر سيف الله على بني جذيمة وقُتل الأسرى لم يفرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك النصر بل تبرّأ عليه الصلاة والسلام إلى الله من عمل خالد.. وعلى الجانب الآخر كان الجهاد من أهم أسباب انتشار الإسلام في الأرض، فلولا الله ثم الجهاد لما بلغ الدعاة أرض الصين في ذلك الزمن القياسي ومع تلك العقبات العظيمة.. فالأمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر..
إن الموازنة بين العمل الجهادي والعمل الدعوي أمر في غاية الدقة والصعوبة ويحتاج إلى حكمة عظيمة، وصبر كبير، وجهد منقطع النظير.. إن هذه الموازنة تحتاج إلى معرفة المحيط المادي والنفسي، وتحتاج إلى قيادة رشيدة تصدر عنها التوجيهات المبنية على الحكمة وبعد النظر.. فلولا القوة العسكرية لما أتت الهدنة في الحديبية وتحققت مصلحة الدعوة في جزيرة العرب، ولولا الدعوة لم تتحقق القوة العسكرية المتمثلة في أفراد الأمة..
إن العمل العفوي المبني على ردود الأفعال (ولو كانت عظيمة) دون النظر في المصلحة الراجحة قد تكون أشد ضرراً على الأمة الإسلامية من كيد الأعداء.. لقد غير النبي صلى الله عليه وسلم رأيه في غزوة أحد لإصرار الشباب على المواجهة خارج حدود المدينة (لمصلحة تأليف القلوب)، بينما أصر على رأيه صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية (مع مواجهته نفس الإصرار أو أشد، ومن كبار أصحابة كأمثال عمر وغيره) للمصلحة التي رآى أنها أعظم من إرضاء الكثير من أصحابه الذين غابت عنهم تلك المصلحة في ذلك الموقف.
إن الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية اليوم تحتاج إلى نظرة حكيمة ووعي عظيم لعواقب الأمور في ظل المعطيات والتحديات، ولابد من الموازنة بين المواجهة المباشرة والغير مباشرة من قبل قادة الأمة (العلماء، والعقلاء من الحكام).. وليست هذه دعوة إلى تفعيل مواجهة على حساب الأخرى، وإنما هي دعوة إلى تفعيل المصلحة المبنية على فقه الموازنات في ظل الظروف الراهنة.
قد يكون التركيز على الجانب الجهادي أصلح في هذه المرحلة من الجانب السلمي (فلا بد للأمة من حفظ هيبتها).. أو قد يكون التركيز على الجانب الآخر على حساب العمل الجهادي أصلح في ظل الظروف الراهنة (لتفعيل العمل الدعوي).. أما إلغاء جانب على حساب الآخر فهذا أمر مستحيل، فراية الجهاد لم ولن تسقط في هذه الأمة إلى قيام الساعة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هي وظيفة هذه الأمة اللتي استحفظها الله كتابه وخصها بخاتم أنبياءه.. فالقول بتعطيل جانب على حساب الآخر ضربٌ من الجنون..
إن هذه الأوقات العصيبة اللتي تمر بها الأمة الإسلامية تحتاج إلى تنسيق دقيق بين الجانبين، وليس هناك وقت للترف الفقهي أو الجدل العقيم.. إن الشباب المتحمس بأمس الحاجة إلى التوجيه الصحيح وتفعيل هذا الحماس لخدمة المصالح العليا للأمة، والعلماء بحاجة ماسة إلى هذه القوة المتمثلة في الشباب لتفعيل البرامج الدعوية والجهادية لتصب مرة أخرى في مصلحة الأمة.. فعلى الشباب أن يلتفوا حول العلماء العاملين المخلصين، وعلى العلماء أن يحرصوا على استمرارية هذا الحماس وتفعيله لخدمة المصالح العليا للأمة..
لقد دفعت الصحوة الإسلامية غالياً نتيجة عدم التنسيق، فكان أن قطف غيرنا ثمار العمل الإسلامي في كثير من المواقف اللتي ضحى فيها الشباب المسلم بدمه وعرقه في سبيل هذا الدين.. إن من أعظم أسباب ضعف العمل الإسلامي غياب التأصيل ووضوح الرؤيا والهدف، وهذا بدوره يؤدي إلى غياب مفهوم العمل الجماعي على مستوى الأمة..
ولو تأملنا فعل عدونا في هذه الحرب لتعلمنا منه درساً عظيما. إن العدو لما أعلن الحرب على الجهاد الإسلامي (الإرهاب) لم يفرق بينه وبين العمل الدعوي المتمثل في المدارس والمناهج الإسلامية.. لقد أدرك عدونا قوة ارتباط العنصرين ببعضهما فأعلن الحرب عليهما جميعاً، فهل نعي نحن بدورنا أهمية الجانبين ونعمل على تقويتهما معاً والتنسيق بينهما في ظل فقه الموازنات الذي لا بد له من علماء جهابذ أصحاب حكمة، ورويّة، وبصيرة بالأمور!!

كتبه:
حسين بن محمود